

الصورة وحرب الصورة أثناء الثورة التحريرية الجزائرية (1956-1962)

The picture and the war of the picture during the Algerian liberation revolution during 1962-1956

د. فايزة بكار*

الملخص:

لقد استجابت "السينما الجزائرية"، لنداء جبهة التحرير الوطني، ومواكبة مسيرتها التحريرية، لتغدو من بين الوسائل الإعلامية، التي اعتمدت عليها قيادة الثورة؛ لمواصلة الكفاح إلى تحقيق النصر.

لقد ولدت السينما الجزائرية في ظروف حرب ضروس بين قوتين غير متكافئتين، لكن رغم ذلك استطاعت أن تثبت وجودها من خلال مختلف الأعمال السينمائية الوثائقية التي قدمتها منذ سنة 1957 وإلى غاية الاستقلال سنة 1962، محققة بذلك نقلة نوعية في إنتاجها، من خلال تصويرها للوقائع والانتصارات، التي حققها "جيش التحرير الوطني"، في ساحة القتال، على الصعيد الدبلوماسي، وكذلك، إبراز التفاف الشعب الجزائري حول الثورة، وإبراز الوجه الآخر لفرنسا الاستعمارية.

الكلمات المفتاحية: الصورة، السينما، الثورة الجزائرية

Abstract:

Conscious of the importance of the image and the audio-visual in the action of sensibilization and mobilization of the people for the recovery of its national sovereignty; and colonial counter-propaganda, the political leadership of the Algerian revolution, was soon to invest in this area.

Thus, and at the heart of the war of liberation, Algerian cinema debuted to promote the image of a people fighting for its emancipation and independence, through a series of films produced between 1957 and 1962 to draw the attention of international public opinion to the legitimacy of their fight

Key Words: Picture , Cinema, Algerian revolution

* rayanefaiza508@yahoo.com - استاذ محاضرة بالمدرسة الوطنية العليا للصحافة - الجزائر

مقدمة

منذ أن وطأت قدميها أرض الجزائر، جندت فرنسا الاستعمارية كل الوسائل الحربية، بما في ذلك وسائل الإعلام المختلفة والمتعددة والمسيرة من طرف كوادر مدرية ومتخصصة، لبسط هيمنتها والإبقاء على نفوذها. وقد حُرم الجزائريون بفعل السياسة الاستعمارية من حقهم الطبيعي في الحياة الكريمة، كما تعرضت حياتهم للمصادرة، لكن الشعب الجزائري بكل مكوناته وفعالياته الوطنية والاجتماعية والسياسية، لم يرضخ لواقع الاحتلال، ولم يستسلم للمخطط الاستعماري المطبق، بل قاوم بثبات وعزم وآمن بخيار المقاومة والتحرر من قيد الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى.

وعندما فجر الشعب الجزائري ثورته في الفاتح من نوفمبر 1954، كان على يقين بأن طريق الحرية ليس سهلا، وكان مقتنعا بأن الثورة الأصيلة لا تضع لنفسها حدا، أو تحدّد لها مجالا؛ فأهدافها متعددة متجددة، ومجالاتها شاملة منفتحة، وغايتها مرتبطة بطموحات شعب عان الويلات، وذاق المرارة لسنوات طوال، فقرّر مواجهة التحدي بالتحدي، وبكل الوسائل المتاحة لديه، قصد إسماع صوته، وتبيان الصورة الحقيقية للمستعمر الفرنسي، وبلوغ هدف ثورته المنشود.

وكان من بين هذه الوسائل السينما بصفتها وسيلة إعلامية ضرورية، كون الكفاح المسلح وحده لا يؤدي كامل النتائج المرجوة.

وهنا يطرح اشكال دراستنا عن الدور التي أدته السينما الجزائرية أثناء الثورة التحريرية في الفترة المحددة ما بين 1956- بالتحديد بعد مؤتمر الصومام- إلى غاية الاستقلال، علما أنها نشأت في ظروف حرب صعبة، إضافة إلى نقص في الوسائل والكوادر مقابل فرنسا العظمى ذات الإمكانيات الضخمة ومعدات تقنية متطورة، وكوادر بشرية مخنكة، والقدرة على الإنفاق المالي الضخم لصناعة سينماتوغرافية رائدة .

ونسوغ إشكالية دراستنا على شكل السؤال الآتي:

ما هو الدور التي قامت به السينما الجزائرية أثناء الحقبة الاستعمارية، وبالتحديد، في الفترة الممتدة ما بين 1956 - 1962؟

تساؤلات البحث :

1. كيف نشأت وتطورت السينما، أثناء الثورة التحريرية الجزائرية؟

2. ماهي الاستراتيجية المتبعة من طرف الثورة الجزائرية للاستغلال الصورة؟
3. ما مدى مساهمة السينما في تحقيق أهداف الثورة التحريرية الجزائرية، قصد استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تتبع نشأة السينما، وتطورها خلال الفترة الزمنية من 1956 إلى 1962، في مواجهتها للدعائية الفرنسية.

انطلاقاً مما سبق، فإنّ هذه الدراسة تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف، منها:

- معرفة ظروف نشأة السينما، ومراحل تطورها.
- معرفة الاستراتيجية المتبعة من طرف الثورة الجزائرية في توظيف الصورة.
- إبراز الدور الذي أدته هذه الوسيلة الإعلامية في مسار الثورة الجزائرية.

منهج البحث:

بما أن موضوع بحثنا ينتمي إلى الماضي، فقد أملت طبيعته اختيار المنهج الملائم لذلك، الذي يتمثل في المنهج "التاريخي - التوثيقي"؛ وهو المنهج المستخدم في دراسة الوقائع التي هي في حكم الماضي .

المبحث الأول: نشأة السينما الجزائرية

1/ مؤتمر الصومام والسينما الجزائرية:

استجابت السينما الجزائرية، لنداء جبهة التحرير الوطني، ومواكبة مسيرتها التحريرية، لتغدو من بين الوسائل الإعلامية، التي تعتمد عليها قيادة الثورة؛ لمواصلة الكفاح إلى تحقيق النصر.

لقد ولدت السينما الجزائرية في ظروف حرب ضروس بين قوتين غير متكافئتين (الكسان، 1982، صفحة 216)، غير أنّ بعض المصادر تُرجع ولادتها -زمنياً- إلى ما قبل الفاتح من نوفمبر 1954، بسنة تقريبا، وهو تاريخ إخراج فيلم وثائقي متميّز، عن حقّاري الآبار، يحمل عنوان: "غطّاسو الصحراء"، للجزائري الطاهر حناش. (الرزاق، 2013، صفحة 196).

وإذا حاولنا تحديد بالتدقيق اهتمام الثورة الجزائرية بمجال السينما، فقد كان منذ انطلاقتها، عندما اتصلت جبهة التحرير الوطني، عام 1955، بالسيد جمال شندرلي Chendarli، الذي كان يشغل -حينذاك- منصب مصوّر مجلة "الأحداث الفرنسية"، وأوكلت إليه مهمة تولي الدعاية خارج الوطن؛ لتوضيح القضية الوطنية للرأي العام الدولي.

ثم ألح مؤتمر "الصومام"، المنعقد في 20 أوت 1956، في أحد فصول وثيقته، التي خصّصها للإعلام، بعنوان: "وسائل العمل والدعاية"، على ضرورة تطوير الوسائل الإعلامية، التي سبق وجودها، والاهتمام بباقي الوسائل الإعلامية الأخرى، تدعيمًا لجهاز الإعلام والدعاية، التي يعدّ سلاحًا مهمًا في الثورة، إلى جانب السلاح القتالي (المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، 1997، صفحة 23)

غير أن ظروف الحرب، التي أعقبت مؤتمر "الصومام"، حالت دون تحقيقه، في الحين، ذلك أنّ ردّ فعل السلطات الاستعمارية، كان عنيفًا على سلسلة الانتصارات التي أحرزتها الثورة، خاصة بعد تنظيم صفوفها، ولمّ شملها، طبقًا لتوصيات مؤتمر "الصومام" (الرزاق، 2013، صفحة 193).

وعلى الرغم من ظروف الحرب الصعبة، التي لا تسمح بإنشاء صناعة سينمائية جزائرية، وما تتطلبه من إيجاد رجال سينما محترفين، ووسائل تصوير، وعتاد سينمائي، ومخابر مستقرة لتحميم الأفلام حتى تنطلق هذه السينما من منطلق علمي مدروس؛ فلا تكون مجرد مغامرة يكون مآلها الفشل، خاضت الثورة الجزائرية التجربة .

ففي بداية عام 1957، تشكّلت أول فرقة للتصوير، أطلق عليها اسم "جماعة فريد"، تحت قيادة "مصلحة السينما"، الممولة للولاية الأولى، التابعة إلى "مصلحة الإعلام" (dadci, 1970, p. 31)، "، للجنة التنسيق والتنفيذ وكان يشرف عليها الشهيد عبّان رمضان، تتكوّن من ستة أعضاء، وهم محمد قنز، وعلى الجناوي، ورونيه فوتيه، وجمال شندرلي، وأحمد راشدي، ليلتحق بهم لخضر حمينة لاحقًا (maherzi, le cinéma, 1980, p. 38)، وبعدها، تمّ فتح "مدرسة السينما"؛ لتكوين المجاهدين في هذا المجال، كان ذلك بجبال الأوراس، بنواحي "تبسة" (الشعب، 1997/11/02، صفحة 07)، وتحت إدارة رونه فوتيه - René Vautier، السيناريست الفرنسي، الذي التحق بالمجاهدين في أرض المعركة، إيمانًا بعدالة القضية الجزائرية، وضرورة تصوير الوجه الآخر لفرنسا الاستعمارية (خيار، 1976، صفحة 51).

أتى قرار إنشاء "المدرسة"، ضمن جملة من القرارات، التي اتخذتها "جبهة التحرير الوطني"، من خلال الاتصال بـ رونيه فوتيه من طرف مسؤول في هذه الجبهة، القائد عبّان رمضان، وتمخض الاتفاق بين الطرفين، بانضمام رونيه فوتيه إلى الجبهة، لإنشاء المدرسة، مع الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية (elkenz, 2003, p. 72).

يعتبر رونيه فوتيه أول من استعمل الكاميرا لتصوير معارك "جيش التحرير الوطني" في الجبال، وكان ذلك بالولاية التاريخية الأولى "أوراس النمامشة" بتبسة، وكان - قبل ذلك - مصورا، يتابع بكاميراته الإضرابات، والاحتجاجات، والمطالب العمالية في فرنسا، قبل أن يلتحق به سينمائيون فرنسيون آخرون، من المناضلين المقربين من الحزب الشيوعي، وعلى رأسهم بيار كليمون Pierre Clément -، ويان ماسون Yann Masson -، ويسييل دي كوجيس Cécile de cujis -، بالإضافة إلى الدكتور بيار شولي Dr Chaulet - (زناجي، 2014)، وقد أثمرت هذه المرحلة من تاريخ السينما الجزائرية بإنتاج ثلاثة عشر (13) فيلما قصيرا (وزارة الإعلام والثقافة، صفحة 10).

ولقد كانت للدول المساندة للثورة الجزائرية مساهمتها الواضحة في المجال السينمائي، مثل "يوغسلافيا"، حيث أوفد المارشال تيتو Tito كلاً من ستيفان لا بودوفيتش، وبيكار، لتصوير الجنود الجزائريين في مواقع القتال.

كانت سنة 1959، منعرجا في تاريخ السينما الجزائرية، حيث صادف ذلك إنشاء "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية"، واستحداث "وزارة الأخبار"، بحيث أوكلت مهمتها للسيد أحمد يزيد، ومن ثم، تأسست "مصلحة السينما" وبالذات سنة 1960 برئاسة محي الدين موساوي، تضم كل من سارج ميشال Serge michel -، وجاك شاري Jacques charaby -، وبيار شوليه Pierre chaulet - و كلودين Claudine -، ومحمد لخضر حمينة، ومحمد بودية، ورشيد آيت ايدر (بجاوي، 2014، صفحة 92)، وقد اختيرت "تونس" مقراً لنشاطها (عواطف، 1985، صفحة 62)؛ حتى يتسنى لها إنجاز أشرطة وأفلام تعكس واقع المعاناة التي يتجرّعها اللاجئون في المناطق الحدودية، بالإضافة إلى نقل أرشيف الثورة إلى "إيطاليا"، و"يوغسلافيا"، للحفاظ عليه (الشعب، الكاميرا تعيش مع الثوار الجزائريين، 1997، صفحة 07). وتدعيما لهذه الوسيلة الإعلامية، قامت "الحكومة المؤقتة" بإرسال مجموعة من الشباب الجزائري الراغب في مواصلة العمل السينمائي، إلى بعض الدول الاشتراكية المساندة للقضية الجزائرية، نذكر من بينهم على محي، الذي التحق بـ "برلين الشرقية"، ولخضر حمينة، إلى "براغ"، عاصمة تشيكوسلوفاكيا، وآخرون إلى يوغسلافيا (خيار، 15 أبريل 1976، صفحة 51).

لقد حققت السينما الجزائرية الثورية؛ نقلة نوعية في إنتاجاتها، في تصويرها للوقائع، والانتصارات، التي حققتها "جيش التحرير الوطني"، في ساحة القتال، على الصعيد الدبلوماسي، وكذلك، إبراز التفاف الشعب الجزائري حول الثورة، من خلال تقديم فيلمين سينمائيين، من إنتاج "مصلحة السينما"، التابعة للحكومة المؤقتة، اللذين تمّ عرضهما في محفل "هيئة الأمم المتحدة"، وهما: "جزائرنّا"، من إخراج جماعي، و "ياسمينّة"، من إخراج شندرلي، ولخضر حمينة (المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، 1997)

2/- استراتيجية الثورة للعمل السينمائي:

لقد شكل "مؤتمر الصومام" 1956، محطة ومرحلة حاسمة في تاريخ الثورة الجزائرية، ذلك أنه مثل الخطوة الأولى في مسار التقويم الثوري. ومكّن الثورة من التزود ببنى تنظيمية ومؤسسية لأول مرة منذ الفاتح من نوفمبر 1954. كما وسع وفصل في المبادئ والأهداف ووسائل العمل التي أجمّلها بيان الثورة الأول ووثقتها الإعلامية حسب الباحث أحمد حمدي والتي من بينها الوسائل الإعلامية والدعائية بما في ذلك الصورة متمثلة في السينما .

أدركت قيادة الثورة أهمية الصورة في المعركة، فانبرى مناضلون يضطلعون بمهمة دعم هذا المكسب الوطني نذكر من بينهم عبّان رمضان، الباعث الرئيسي لهذه الاستراتيجية ، التي تكمن في استعمال الوسائل السمعية - البصرية، إلى جانب الأسلحة في المعركة، ولا يمكن تجاهل دور محمد بوضياف، في اهتمامه بالسينما، بين سنتي 1956-1957، باستقباله أول مجموعة من المصورين التلفزيونيين من الولايات المتحدة الأمريكية، لتصوير معارك ثورة التحرير، من محطة "CBS" ، وتمّ إدخالهم إلى جبال "وهران"، وبثّ عملهم قبيل انعقاد "الجمعية العامة للأمم المتحدة"، سنة 1957.

إنّ استراتيجية العمل الإعلامي، الذي قادته جبهة التحرير الوطني، في المجال البصري، هو -قبل كلّ شيء- جمع الصور الفوتوغرافية، والمشاهد المصورة، بهدف تلبية الطلب المتزايد للمجلات المصورة، وشبكات التلفزيونات، التي تحتل فيها خدمات الأخبار حيزا كبيرا، في تلك الفترة، من منتصف خمسينيات القرن الماضي. لقد أعطت تلك الجهود ثمارها منذ الأشهر الأولى للكفاح المسلح، وخاصة، عندما تمّ إنجاز الأفلام المذكورة، وغيرها من التحقيقات حول ثورة الجزائر من أطراف أمريكية، وتوزيعها في كبريات القنوات التلفزيونية، في الولايات المتحدة، وفي أمريكا اللاتينية. وبدأ الرأي العام الغربي -شيئا فشيئا- يعرف حقيقة ما يجري في الجزائر، ويكتشف حقيقة الإعلام الفرنسي المزيف للحقائق، والوقائع (بجاوي، 2014، الصفحات 96-97).

منذ سنة 1956، أدت الصورة دورا حاسما في الترويج الإعلامي للحرب المشتعلة بين طرفين غير متكافئين، وبذلك بنحت جبهة التحرير الوطني في إدماج سينمائيين مناضلين، من بينهم عدد من الفرنسيين، لإرسال صورة عصرية عن المطامح الثورية للشعب الجزائري .

أعطيت الأولوية المطلقة، خلال مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال، لجمع المشاهد المصورة، كهدف حيوي، يتمثل في تزويد صحافي العالم بصور، ومشاهد تُظهر شعبا مجندا يسعى إلى الحصول على حريته. ومن هنا، فإنّ ملتقطي الصور، الملتزمين مع جبهة التحرير الوطني، كانوا في مجملهم من المصورين التلفزيونيين، أكثر منهم سينمائيين، بالمفهوم الذي أعطي لهم بعد نهاية الحرب.

وتعتبر "جبهة التحرير الوطني" هؤلاء الملتقطين للصورة، جنودا حقيقيين، مهمتهم تقديم وثائق مصورة، تتولى خلية السينما تجميعها، وسحبها، ثم تركيبها، وفقا للاحتياجات الثورة، ومتطلبات المرحلة. لذلك، نجد مشاهد متطابقة، لعمليات عسكرية، تم تصويرها بأيدي جزائريين، تخضع لعمليات تركيب مغايرة، الأمر الذي أدى إلى ظهور أصوات، من الذين شاركوا في التقاط صور حرب التحرير، وتصوير مشاهد، تطالب بأحقّيتها في التصوير، واختلفت حول "أبوية" بعض الأفلام القصيرة، التي تمّ تركيبها أو مزج مادتها مع ما امتلكه جهاز السينما الجزائري، في تلك الفترة - دعما للقضية الجزائرية - وعرضها في محافل هيئة الأمم المتحدة. لكن ما هو أكيد أن مختلف المشاهد المصورة كانت بدعم من جبهة التحرير الوطني، وتعود بصورة كاملة إلى "خلية السينما"، التابعة للحكومة الجزائرية المؤقتة (بجاوي، 2014، صفحة 99).

المبحث الثاني: الثورة التحريرية في الأفلام الثورية:

على الرغم من مضايقات السلطات الفرنسية على "مدرسة السينما" بعد مرور سنتين من عمرها، والنقص في التكوين، والتجهيز، ممّا حمل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية على استدعاء الفريق السينمائي إلى تونس، وإحقاقه، بين سنتي 1959 و 1960، بمصلحة السينما، بوزارة الأخبار، تحت اسم "مصلحة السينما الوطنية"،- يمكننا القول ان إرادة طلاب "المدرسة" الجزائريين تفوقت على الإدارة الاستعمارية، حيث قام الفريق العامل بإنجازات، أحدثت صداها المرجو على المستوى الدولي. هكذا بدأت السينما الجزائرية بعفوية في الجبال، حيث كانت انطلاقها من الواقع، بإنجاز أفلام قصيرة بغرض الدعاية السياسية. عكفت المصلحة، خلال تلك الفترة على جمع الأرشيف الخاص بجيش التحرير الوطني، والحرص على حمايته من الأيدي الفرنسية، من خلال تهريبه إلى يوغسلافيا، وإيطاليا، كما عملت على تكوين

الشباب الجزائري، في الدول المساندة، حتى يتمكن من الاطلاع على آخر التقنيات السينمائية، وتوظيفها في خدمة الثورة التحريرية الجزائرية، وفي هذه المرحلة، يظهر اسم لخضر حمينة، وأحمد راشدي، اللذان أخرجوا مجموعة من الأفلام الوثائقية. (elkenz 2003, p. 82)، وواصل الطلاب نضالهم بالصورة إلى آخر لحظة الاستقلال، محاولين نقل وقائع الجزائر المحتلة، وإيصال صوت الثورة إلى أبعد الحدود، وسنقدم، في هذا المبحث، الأفلام التي تم إنتاجها أثناء الثورة التحريرية.

1- أفلام وثائقية بكاميرات أجنبية مساندة ومشتركة (أجنبية - جزائرية)

1-1 - مدرسة السينما: L'école de cinéma -

فيلم وثائقي قصير، أنتج سنة 1957، من إخراج رونييه فوتيه، باللغة الفرنسية. يُعرف هذا الفيلم بـ "مدرسة التكوين السينمائي"، التي أنشأتها "جبهة التحرير الوطني"، في جبال الولاية التاريخية الأولى، التي أوكلت إليها مهمة تكوين سينمائيين شباب، سلاحهم الكاميرا، في حركهم ضد المستعمر الفرنسي.

1-2 - الجزائر أمة: Une nation l'Algerie -

فيلم وثائقي آخر من إخراج رونييه فوتيه، أنتج سنة 1957. حاول المخرج - من خلاله - التأكيد على أن الجزائر تختلف كل الاختلاف عن فرنسا من حيث التاريخ، والجغرافيا، واللغة، والثقافة، والحضارة.

1-3 - الجزائر تلتهب: L'algerie en flammes -

فيلم وثائقي مدته 23 دقيقة، بالألوان، أنتج سنة 1958، باللغة الفرنسية، من إخراج رونييه فوتيه دائما بمساهمة جمهورية ألمانيا الديمقراطية (D.E.F)، أين تم تركيب الفيلم، وتحميض صوره في برلين، ووزعت من الفيلم مئات النسخ، كما عرض في العديد من دول العالم أولها مصر.

يعرض الفيلم واقع الثورة الجزائرية، من منظور جزائري، وما تركبه فرنسا من جرائم في حق الشعب الجزائري، وصور الجزء الأكبر منه في الجزائر العاصمة، وذلك بين سنتي 1956-1957 (وزناجي، 2014، ص 53-54).

1-4- - اللاجئين: Les réfugiés -

باللغتين الفرنسية، والإنجليزية، أنتجته "مصلحة السينما"، التابعة لجهة التحرير الوطني، وبمساعدة "شبكة جونسون". أخرجته سيسيل دي كوجيس، بالأبيض والأسود، ومدته 15 دقيقة .

الفيلم عبارة عن شهادة، تكشف المعاناة اليومية، التي عاشها الجزائريون على الحدود الشرقية للوطن، كما يصوّر عملية تهجير هؤلاء السكان نحو المحتشدات، الواقعة على الحدود الجزائرية التونسية، ومعاناتهم على تلك الأراضي (بجاوي، 2014، صفحة 99).

1-5- - ساقية سيدي يوسف: Sakiet sidi youssef -

فيلم وثائقي، باللغتين الفرنسية والإنجليزية، أنتجته "مصلحة السينما"، سنة 1958، وكان بالأبيض والأسود، ومدته 15 دقيقة، وهو من تصوير، وإخراج بيار كليمون (وزناحي، 2014، صفحة 59).

أزعج هذا الفيلم السلطات الفرنسية كثيرا، باستعراضه للجريمة التي اقترفتها فرنسا في حق سكان قرية سيدي يوسف التونسية، الواقعة على الحدود الجزائرية التونسية، و يعدّ بذلك شهادة حيّة على وحشية الاستعمار الفرنسي، وقد كان له صدى عميق، في إثارة الرأي العام الدولي ضد فرنسا الاستعمارية، التي لم تكتثر بالقانون الدولي.

1-6- - جيش التحرير الوطني في الكفاح: L'ALN en combat -

فيلم قصير وثائقي، أنتج سنة 1958 باللغة الفرنسية من إخراج بيار كليمون، يظهر مشاهد من نضال وكفاح جيش التحرير الوطني في الجبال. تعرض مخرجه للأسر من طرف جنود الاحتلال الفرنسي أثناء اشتباكاتهم مع كتيبة من جيش التحرير الوطني، وهو يحمل الكاميرا في يده وتم سجنه في ذات السنة لمدة عشرة سنوات بفرنسا، ليفرج عنه بعد استرجاع الجزائر لاستقلالها.

1-7- - عندي ثمان سنوات : j'ai huit ans -

فيلم قصير، أساس مادته رسومات أطفال جزائريين، مصدومين من آثار الحرب، التي يعيشون في قلبها، أنتج سنة 1961، من تصوير يان ماسون، وأولغا ماسون. المادة الأولية للفيلم، التي وفرها السينمائي رونيه فوتيه، أعدّها أطفال أثناء حصص للعلاج، يشرف على تنظيمها فرق الطبيب فرانز فانون .

تمّ منع الفيلم سنة 1961، لكن هذا لم يكن حاجزا لعرضه بصورة سرية، وقد اكتشفه الجمهور الفرنسي في باريس، في العاشر فيفري (10) من سنة 1962، قبيل الاستقلال بعدة أشهر .

1/8- خمسة رجال وشعب : Cinq hommes et un peuple -

فيلم وثائقي، أنتج سنة 1962 بالألوان، من قبل "مصلحة السينما" للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، كانت مدته 43 دقيقة، من إخراج رونييه فوتيه. تابعت الكاميرا، من خلال هذا العمل، الخطوات الأولى الخمسة من القادة التاريخيين، بعد إخلاء سراحهم من معتقل "قصر أولنوي"، بفرنسا، بعد حبسهم خمس سنوات. ويخص الأمر بـ أحمد بن بلة، ومحمد بوضياف، ورايح بيطاط، وحسين آيت أحمد، ومحمد الخيضر.

1-9- جزائري :

أنتج هذا الشريط الوثائقي سنة 1961 من قبل مصلحة السينما التابعة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، بالأسود والأبيض مدته 25 دقيقة، باللغة العربية وشارك في إخراجها كل من الدكتور بيار شولي، وروني فوتيه، وجمال شندرلي ومحمد لخضر حمينة. الفيلم يكشف عن الدوافع الحقيقية لاندلاع الثورة التحريرية، ويهدف إلى تعريف العالم بطبيعة الكفاح، وهو بذلك موجه للوفود الأجنبية في الأمم المتحدة، ورؤية فكرية تستبعد مفهوم المؤلف الوحيد، كتب نصه محي الدين موساوي، وبيار شولي، في حين تولى حسن بلحاج تنسيق الإنتاج، وأشرف مصطفى كاتب على الجانب الموسيقي للفيلم؛ ليتم تحميصه، وتركيبه في بلغراد. تم عرض الفيلم في نيويورك على هامش الجمعية العامة للأمم المتحدة، قدم صورا، ومشاهد لجيش منضبط، ومنظم بعيدا عن صور الفلاقة، التي تغذيها الدعاية الفرنسية (وزناجي، 2014، ص 92-93).

2- أفلام وثائقية بكاميرات جزائرية:

2-1- الهجوم على مناجم الوزنة L'attaque des mines de l'ouenza - :

فيلم وثائقي من إخراج طلبة المدرسة، أنتج سنة 1957، بالأسود والأبيض، وباللغتين: الفرنسية، والإنجليزية، كانت مدته ست دقائق. هذا الفيلم عبارة عن تقديم مختصر لإحدى العمليات المسلحة الناجحة، التي نفذها جيش التحرير الوطني، والتي استهدفت المركز الاقتصادي لـ الوزنة، أهم منجم للحديد والصلب في الجزائر -أنداك-.

2-2/- ممرضات جيش التحرير الوطني: Les infirmières de l'ALN -

فيلم وثائقي، أخرجه طلبة المدرسة، أنتج سنة 1957، بالأسود والأبيض، وباللغة الفرنسية، مدته ستة دقائق. يعد هذا الفيلم أول شهادة حول دور المرأة في الكفاح المسلح ضد المستعمر الفرنسي، من خلال التعريف بدور الممرضات الجزائريات في الثورة، اللاتي كنّ إلى جانب الرجل في العمل المسلح. وقد تمّ بث هذا الفيلم في تلفزيونات البلدان الاشتراكية، أولها تلفزيون جمهورية ألمانيا الديمقراطية (بجاوي، 2014، صفحة 74).

2-3/- بنادق الحرية: Les fusils de la liberté -

فيلم وثائقي، أنتج سنة 1961، من قبل "مصلحة السينما" التابعة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، بالألوان، وباللغة الفرنسية، مدته 20 دقيقة، من إخراج جمال شندري، ومحمد لخضر حمينة، والسيناريو ل سارج ميشال. يعتبر النقاد أنّ فيلم "بنادق الحرية" تكمله لفيلم "جزائرنّا"، تروي أحداثه الصعوبات، التي تواجهها فرقة من "جيش التحرير الوطني"، مكلفة بنقل الأسلحة، والذخيرة من تونس، عبر الصحراء الجزائرية، التي تعتبر منطقة محورية في نقل، وتزويد الأسلحة، رحلة صعبة جدا جعل مهمتها مخوفة بالمخاطر.

2-4/- صوت الشعب: La voix du peuple -

فيلم وثائقي روائي، بالأسود والأبيض، من إخراج جمال شندري، ومحمد لخضر حمينة، أنتجته "مصلحة السينما"، التابعة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سنة 1961، مدته 26 دقيقة.

2-5/- ياسمينة: Yasmīna -

فيلم بالأسود والأبيض، أنتجته "مصلحة السينما"، سنة 1961 ومدته 20 دقيقة، من إخراج جمال شندري، ولخضر حمينة.

و"ياسمينة"، التي يعالج الفيلم قصة حياتها، تبلغ من العمر ست سنوات - فقط -، لكنها تحدّث واقعها المرير، وتحملت الجوع، والخوف (وزناجي، 2014، ص 62). إنّها الطفلة التي ترمز إلى الآلاف من الأطفال الجزائريين، الذين حولتهم ظروف الحرب إلى لاجئين في الحدود الجزائرية الشرقية، مضطرين إلى ترك منازلهم، وأراضيهم.

إنّ هذا الفيلم الوثائقي، الذي أعدّ نصه، وقراه سيرج ميشال، من شأنه أن يلفت نظر الرأي العام الدولي إلى الوضع الناجم عن الحرب، وما ترتب عنه من ترحيل قسري للسكان، ووضعهم في محتشدات عسكرية، حيث يعد هذا الفيلم الأول من نوعه، في تاريخ السينما الجزائرية، فيلم واقعي موجه لتحريك مشاعر المتفرجين الغربيين؛ من أجل بسط فكرة سلب وطن بالقوة.

وحسب رأي المجاهد المرحوم محمد يزيد؛ وزير الإعلام في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، فإن فيلم "جزائرتنا" يخاطب العقل بينما فيلم "ياسمينه" يخاطب القلب والجوارح (بجاوي، 2014، ص 94).

وعلى الرغم من الإمكانيات الفنية، والتقنية المحدودة، والظروف الصعبة، التي رافقت ميلاد "السينما الجزائرية"، في سنة 1960، التي تعدّ - بحق - المنطلق الحقيقي لبداية تصوير الأشرطة عن الثورة التحريرية، فإنّ أول الأشرطة التي أنجزتها، قد تجاوزت هذا الواقع، وأثبتت وجودها الفعلي. فهناك أفلام قصيرة كانت تصوّر الواقع بدون أي تزيف، أو مبالغة، أو تشويه (maherzi, 1980, p. 64)، كما كانت تقدم صور حقيقية عن الحرب، التي يدور رحاها في الجزائر، تظهر - من خلالها - بشاعة هذه الحرب، وتمجّد الشهداء وتشيد بالمجاهدين، وكلّ من دافع، أو ضحى لأجل هذه الثورة. (Boudjedra, 1971, p. 14)

يذكر أنّ مجموع الأفلام، التي تم إنتاجها أثناء الثورة التحريرية، والتي تحسب للسينما الجزائرية، لم تكن ردًا على المنتج السينمائي الاستعماري الفرنسي، نظرًا للفرق الشاسع، في الوسائل المادية والبشرية، بل هي - ببساطة - سينما ملتزمة، ثورية، استمدت نجاحها من القضايا التي عاجلتها، فجعلت العديد من شعوب العالم تنظر إليها نظرة إعجاب وتقدير .

من خلال هذا العرض، يمكن أن نتبيّن قوة مواكبة السينما الجزائرية لحرب التحرير الوطنية، و دور جهاز "مصلحة السينما" الناشئة، وطموح طلبتها الفتيان إلى امتلاك صناعة سينمائية، يسهم فيها سلاح الكاميرا، والصورة إلى جانب سلاح الرشاش، والرصاص، دون إغفال عمق المساندة الأجنبية التي قدمها أحرار العالم، وخاصة أولئك السينمائيون الفرنسيون الشيوعيون المحترفون، الذين استطاعوا أن ينقلوا إلى الرأي العام الفرنسي، ثم الأوروبي - وهي شهادة شاهد من قومهم - بالصوت والصورة، ما كان يحدث بالجزائر على وجه الحقيقة .

المبحث الثالث: رواد السينما الجزائرية

كانت السينما الجزائرية إحدى المعطيات، التي أفرزتها حرب التحرير، ولقد استشهد مجموعة من المجاهدين، الذين كان سلاحهم الكاميرا، ومن هؤلاء: فاضل معمر زيتوني، وعثمان مرابط، ومراد بن ريس، وصلاح الدين السنوسي، وفرذلي الغوني مختار، وعبد القادر حسينة، وسليمان بن سمان، وعلى جنادي (الكسان، 1982، صفحة 216).

التحق هؤلاء الرجال بـ "مدرسة السينما"، التابعة لجبهة التحرير الوطني، سنة 1957، رغم الصعوبات التي كانت تعترض طريقهم، ولم تكن قلة الإمكانيات، وظروف الحرب، حائلا لتوصيل الحقائق للعالم؛ عن حقيقة فرنسا الاستعمارية، التي عملت - طويلا - على إخفائها، كان فريقا يعي مقدار المسؤولية الملقاة على عاتقه، فهو مكلف بنقل الصور الحية من جهة، والاحتماء من العدو، الذي لم يكن يميز بين حامل السلاح، وحامل الكاميرا، خاصة، وأن فرنسا حرصت كل الحرص على عدم وصول هذه الصور، الملتقطة من الواقع، للعالم (elkenz, 2003, p. 80).

استطاع المصورون السينمائيون الأوائل أن يزودوا أرشيف السينما الجزائرية بعشرات الأشرطة الإخبارية والتسجيلية، التي تعتبر - اليوم - وثائق تاريخية ذات أهمية كبرى، مع التأكيد أن الظروف والمناخ الذي كان سائدا - آنذاك - لم يكن يسمح بظهور سينما بآتم معنى الكلمة؛ لأننا ندرك أن الأفلام، التي صورت في الفترة الممتدة ما بين سنة 1957، وسنة 1962، لا تمثل أعمالا فنية؛ إذ لا الوسائل البشرية، ولا الوسائل الفنية، تستطيع سد حاجيات الفيلم (moudjahid, 03/11/1981, p. 20).

ويمكن رصد هذه الحركة السينمائية - باعتبار النشأة التاريخية، ومن ثم، الرواد الذين صنعها - من خلال مسارين: مسار ظهر فيه دور السينمائيين الأجانب، المتعاطفين مع القضية الجزائرية، ومسار كشف عن جيل من الفنانين السينمائيين الجزائريين، كانوا ثمرة هذا الاحتكاك مع الخبرات الأجنبية، وهذا التعاون النضالي .

1/- الرواد الغربيون (المتعاطفون مع الثورة الجزائرية)

1-1/- رونييه فوتيه: René Vautier

يرتبط اسم السينمائي رونييه فوتيه بميلاد السينما الجزائرية؛ فقد وصل إلى "تونس"، في أواخر 1956، وبداية 1957، بطلب من الحكومة التونسية، من أجل تصوير أفلام عن الجمهورية التونسية المستقلة حديثا. واتفق مع عبّان رمضان،

أحد قادة الثورة التحريرية، ابتداء من سبتمبر 1957، لتكوين فنيين جزائريين في الجبال، لتضاف الصورة، بذلك، كلون من ألوان الكفاح ضد المستعمر الفرنسي.

قام رونييه فوتيه بأول تصوير لمشاهد للكفاح في "أوراس النمامشة"، تمثل في "فيلم وثائقي"، بعنوان: "الجزائر تلتهب" **L'Algérie en flammes -**، تمّ تركيبه في جمهورية "ألمانيا الديمقراطية".

لقد كان رونييه فوتيه من الأوائل الذين عملوا لمصلحة الجزائر، من خلال إنتاجه عدّة أفلام سينمائية قصيرة، تناهض الاستعمار الفرنسي، وترافع لصالح استقلال الجزائر، ومن أعماله: "أمة الجزائر"، و"الجزائر تشتعل"، و"ممرضات جيش التحرير الوطني"، و"صور معركة"، و"قطار ونزة".

وما يعرف عن الرجل شجاعته التي يتميز بها؛ فهو من السينمائيين، الذين كانوا على استعداد لتحمل مخاطر كبيرة من أجل التقاط الصور، وفي أحد تصريحاته، أكد رونييه فوتيه، ردّاً على فرانسوا ميتران François Mitterrand، وزير الداخلية الفرنسية - آنذاك -: "إذا كانت الجزائر هي فرنسا، فإن الجزائريين لهم الحق، كفرنسيين، في أن يشرحوا لماذا يشعرون بالاختلاف، وإلّاني أملك الحق في الذهاب بالكاميرا؛ لطرح بعض الأسئلة على هؤلاء الفرنسيين، الذين لا يرغبون أن يكونوا فرنسيين على الإطلاق" (بجاوي، 2014، ص ص 69-77).

1-2/- بيار كليمون : Pierre Clément

التحق بتونس بطلب من رونييه فوتيه، سنة 1958، حيث يصفه رضا مالك، بـ: "الرجل الصارم"، و"الرجل المثير للإعجاب"، و"الرجل النزيه المقتدر". ويضيف رضا مالك بأن هذا الرجل قد وجد نفسه قريباً جداً من الجزائريين، بفضل خصاله الإنسانية، كما أنّه ربط علاقات ودية مع مسؤولين من جبهة التحرير الوطني، على غرار المجاهد أحمد بومنجل .

آمن بيار كليمون بعدالة قضية شعب لا ينتمي إليه، ولمساعدته، رمى نفسه في جحيم حرب ملتبهة، لم يبال فيها بخطورة الوضع، من أجل التقاط صور حقيقية من قلب الحدث، وقد كلفه ذلك: الإصابة بجروح، والوقوع في يد المحتل، والكاميرا في يده .

كان إلقاء القبض عليه، في سبتمبر، من سنة 1958، حين توجه رفقة تركي زغلول، و أحمد ظهراوي نحو الجزائر، حيث اجتاز الرجال الثلاثة "خط موريس"، شرقاً، وقاموا بتصوير العديد من المشاهد، واللقطات؛ أرسلوها إلى "تونس"

على ظهور البغال، لكن الحظ لم يكن حليفهم، ففي اشتباك بين جنود "جيش التحرير الوطني"، وقوات الاحتلال، تمّ إلقاء القبض على تركي زغلول، وبيار كليمون، في الثالث من أكتوبر، بالقرب من "بونة"، عناية جالسا، ولم يفلت الرجلان من تعذيب قوات الاحتلال قبل أن تحكم عليهما "الحكمة العسكرية"، في الثالث والعشرين من ديسمبر، بتهمة المساس بالأمن الخارجي للدولة، الأول بعشر سنوات سجنًا، والثاني بخمس سنوات، في وقت الذي تمكّن فيه أحمد الظهراوي من الإفلات، رغم إصابته بجروح أثناء الاشتباك، واستفاد - لاحقًا - من تكوين في التصوير، بجمهورية ألمانيا الديمقراطية .

أنجز بيار كليمون عدّة أشرطة مصوّرة (عشرين شريطًا)، تمّ إرسالها، على ظهر البغال، نحو "تونس"؛ ليتّم إرسالها إلى "يوغسلافيا"، وذلك قبل توقيفه .

كان بيار كليمون مناصرًا للثورة الجزائرية، مدافعًا عنها، وظّف خبرته السينمائية في تحقيق أهداف الثورة الجزائرية، من خلال التقاطه أهمّ الصور الواقعية لما كان يجري في الجزائر، من تعذيب وحشي، وإبادة جماعية، بالإضافة إلى صور الحصار البغيض الممارس على الشعب الجزائري، ومشاهد الأسلاك الشائكة الكهربائية، واستعمال قنابل "النابالم"، الحزمة دوليًا. ولم يطلق سراح بيار كليمون إلّا بعد استقلال الجزائر، وتحديدًا في الثامن أكتوبر من سنة 1962 .

1-3/- يان لو ماسون: Yann le Masson -

يعد يان لو ماسون من بين الفرنسيين الذين ثاروا ضد ما شاهدوه، وعاشوه بالجزائر، عندما كان عضواً في الجيش الفرنسي، ممّا جعله ينتقل إلى الضفة الأخرى، ويجعل من "كاميرا"، سلاحاً آخر، لمساعدة الشعب الجزائري وفضح دور الجيش الفرنسي في هذه الحرب .

لقد ساند يان لو ماسون القضية الجزائرية، وقرّر خدمتها، ومن هنا، جاءت فكرة إعداد فيلم يعتمد على "رسومات أطفال ضحايا الصدمات"، ذات الصلة بالاحتلال الفرنسي، وأعماله الشنيعة الممجية، من: قصف قرى شعب أعزل، وتقتيل أبرياء؛ ذنبهم عدم الانصياع .

لقد حقّق يان لو ماسون مشروعه المناهض للاستعمار، بمساعدة زوجته اولغا بولياكوف Olga Poliakov - ، وبمساعدة رونييه فوتيه، الذي وفرّ له رسومات الأطفال الجزائريين. الفيلم كان ممنوعاً من البثّ، عند الانتهاء منه، عام 1961، وإلى غاية 1972، لكن هذا لم يمنع من عرضه سرّاً، وتعرّضه للحجز .

1-4/- سيسيل ديكوجيس : Cécile Decugis

كلّف وقوف سيسيل ديكوجيس إلى جانب الثورة الجزائرية السجن، حيث قامت بتأجير شقة بـ "باريس"، من أجل تمكين مناضلين من "اتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني"، من عقد اجتماعاتهم بها. وقد تمّ توقيفها في الثاني من أوت سنة 1958، ومحاكمتها في مارس 1960.

أنجزت سيسيل ديكوجيس فيلما وثائقيا من 16 دقيقة، اسمه "اللاجئون"، سنة 1957. ويعدّ من أولى الأفلام، التي يقصد منها التعريف بالقضية الجزائرية، ومساندة استقلال الجزائر، وهو من إنتاج التونسي هادي بن خليفة، وقد تمّ عرضه، على هامش "الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة"؛ بهدف التنديد بعملية إجلاء السكان، وإرغامهم عن التخلّي عن ممتلكاتهم، وتهجيرهم - قهرا -، بعد إقامة خط "موريس". لكن، لسوء الحظ، اختفى التعليق المرفق بالنسخة الأصلية، بصورة كاملة.

1-5/- ستيفان لابودفيتش، زدرافكو بيكار وكارل غاس Stevan Labudovic, Zdravko Pecar, Karl Gass :

عايش ستيفان لابودفيتش القضية الجزائرية، من خلال تغطيته لندوة "بريوني" Brioni - بـ "يوغسلافيا"، في جويلية 1956، التي نظمها جوزيف بروس تيتو - Josip Broz Tito، وحضرها وفد من "جبهة التحرير الوطني".

كان ستيفان لابودفيتش ملتزما - كليّا - مع جيش التحرير الوطني، حيث قام، في الفترة الممتدة ما بين سنة 1959، وإلى غاية 1962، بتصوير مشاهد لجيش التحرير الوطني، وكان عون اتصال مع المخابر إلى يوغسلافية، حيث ما تزال الأفلام السلبية لتلك الفترة مخزونة.

في تلك الفترة، قدم زدرافكو بيكار إلى تونس؛ ليعيش مع الثوار الجزائريين سنة كاملة، انطلاقا من 1957، وأسهمت تحقيقاته في تجنيد الرأي العام إلى يوغسلافيا، لفائدة حركة التحرير الجزائرية، وجعل "يوغسلافيا" حليفا، وقاعدة خلفية. إذ أغلب الأشرطة الفيلمية، كانت تحمّض، ويتم تركيبها في "بلغراد"

للإشارة كانت يوغسلافيا بلدا أوروبيا حليفا للثورة الجزائرية، لقد تمّ التوقيع على اتفاق للتعاون التقني، حول التكوين السينماتوغرافي على الحدود الجزائرية التونسية، بينها وبين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وكان ستيفان لابودفيتش، في حينها، يقود فريقا من المكونين، لتأطير الشباب المتربص، الذي انتقته "المحافظة السياسية" لجيش التحرير الوطني،

وكان الهدف من هذا الاتفاق: توفير تقنيين لقيامهم بعملية التصوير في الجبال، وتحضير إطارات للسينما عند استقلال الجزائر .

وضمن هذه الاستراتيجية، تم إرسال سينمائيين من الشباب الجزائري إلى مدارس للتكوين السينمائي في "براغ"، و"برلين"، أمثال جمال شندرلي، ولخضر حمينة، وعلى يحي .

1-6/- جاك شاربي: Jacques Charby -

أحد الوجوه الثقافية، التي طبعت الحركة الثقافية المناهضة للاستعمار الفرنسي. انخرط في شبكة "جونسون"، ابتداءً من 1958، وألقي عليها القبض في 1960، وتم استنطاقه لمدة ثلاثة أيام، ثم أدخل السجن، لكنه فر منه، في نهاية 1960، والتحق بجهة التحرير الوطني بـ "تونس"، ولم يسمح له بالعودة إلى فرنسا إلا في سنة 1966..

أصبح جاك شاربي مساعدا مقربا من محي الدين موساوي، في "خلية السينما"، التابعة لوزارة الإعلام للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وقد ناضل إلى جانب فرانس فانون، وبيار كلودين، وبيار شولي بكل حماس، وإنسانية، لصالح الثورة الجزائرية. (بجاوي، 2014، الصفحات 86-90)

لقد آمن هؤلاء الأصدقاء الأجانب بعدالة قضية شعب بأكمله، تعرض للتعذيب، والتنكيل، والإبادة الجماعية، قاوم بصبر، وإيمان من أجل افتكاك حريته المسلوبة، والعيش في كنف الكرامة مثل بقية شعوب العالم، متحملا، في سبيل ذلك، كلّ الإجراءات القمعية، والعمليات الانتقامية، وأساليب الفتك والدمار، التي استعملها الاستعمار الفرنسي.

2/- الرواد الجزائريون (ثمرة مدرسة السينما الجزائرية)

ومن رواد السينما الجزائرية، أسماء جزائرية، إلى جانب نخبة من الأسماء الأجنبية، التي قدمت خدماتها، وخبرتها، في المجال السينمائي للثورة الجزائرية، ومن أهم هذه الأسماء :

2-1/- جمال شندرلي: Djamel Chanderli -

يمكن اعتبار جمال شندرلي، رائد، ومؤسس "الفيلم الجزائري الثوري" حسب الدكتور (أحمد بجاوي)؛ حيث قدم لجيش التحرير الوطني النواة الأولى لخدمة التصوير الفوتوغرافي، ثم السينمائي في تونس (بجاوي، 2014، صفحة 66). وتم الاتصال بجمال شندرلي، من قبل صالح الوانشي.

لقد كان لجمال شندرلي، باع طويل في مهنة التصوير السينمائي، حيث سبق له أن شارك إلى جانب طاهر حناش، في إنتاج "غواصو الصحراء"، واستمر في العمل كمصور سينمائي، ومصور حرّ، لحساب الوكالات، وخصوصا منها وكالة الأحداث المصوّرة الفرنسية.

غطى جمال شندرلي، من سنة 1955، إلى أوت من سنة 1956، عددا من الأحداث المتصلة بحرب التحرير الوطني، من بينها جنازة الدكتور بن زرجب، الذي تعرض للتعذيب حتى الموت على يد الجيش الفرنسي بـ "تلمسان"، كما غطى المظاهرات التي أعقبتها في جانفي، من سنة 1956، وصور "المذابح"، التي ارتكبتها المدنيين الأوربيون، بمخرج مقبرة "بالسطرو"، حيث تمّ دفن الكثير من الجنود الجزائريين، وكاد السينمائي جمال شندرلي، أن يتعرض للقتل، بعدما تمّت مصادرة أفلامه من قبل جيش الاحتلال الفرنسي.

يعد جمال شندرلي من الأوائل المنخرطين في "مصلحة السينما، والتصوير"، التي تمّ إنشاؤها في سبتمبر 1956، في "تونس"، وكان له مخبر للصور داخل مطبخ مجهز بأدوات تجميع الصور، في شقّة له بأحد شوارع "تونس"، وذلك تحت إشراف رؤساء قاعدة تونس، وهم السيدان إبراهيم مزهودي، وعمار بن عودة.

وفي سنة 1957، كلفه عبد الحفيظ بوصوف بتصوير عمليات التدريب لجيش التحرير الوطني، في القواعد الموجودة بين "وجدة"، والقاعدة الخلفية "ابن مهدي"، الواقعة على الحدود الجزائرية المغربية بوسائله الخاصة.

وفي جوان 1960، التحق جمال شندرلي بالجبال الداخلية للولاية الخامسة، والمنطقة الثامنة، حيث أنجز عدة تحقيقات مصورة في الجبال الغربية، وقد سلم الأرشيف، والصور، والأفلام الخاصة بالولاية، إلى مسؤولي هيئة الأركان العامة، بقيادة هوارى بومدين .

وفي ديسمبر من سنة 1956، التحق السينمائي جمال شندرلي بجبال الولاية الثانية، وعلى ذراعيه كاميرتين اثنتين؛ ليلتقط أولى الصور الجزائرية للثورة، التي تم استغلالها - لاحقا - في الفيلم الوثائقي "جزائرنّا".

وفي أوائل 1957، قام جمال شندرلي بتصوير عدة تحقيقات حول عمليات القصف، وحياة الجنود، ودعم السكان لحرب التحرير الوطني؛ من خلال تزويد المجاهدين بالتموين، وإيوائهم، وذلك في جبال الولاية الثانية، كما زوّده "جيش التحرير الوطني" بأفلام خام؛ ليتكفل بتحميضها.

وفي 1958، قام، عن طريق الصدفة، بتصوير عملية قصف بـ "النا بال"، في منطقة "الميلية"، بالشمال القسنطيني. ونظرا لأهمية تلك الصور، قرر العودة إلى تونس؛ لإرسالها تلك إلى أخيه عبد القادر شندرلي، بالأمم المتحدة، من أجل تحميمها، واستغلالها في فضح بطش الاستعمار الفرنسي بالجزائر، واستعماله للأسلحة الممنوعة.

قام جمال شندرلي - أيضا - بتصوير عملية التزويد بالأسلحة، من القاعدة الشرقية، وقد وجد في ذلك فرصة لإضافة مشاهد جديدة لموضوع حول تدفق، ونقل الأسلحة نحو الجبال منذ 1958، وإلى غاية تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في سبتمبر 1959.

تولي جمال شندرلي - لاحقا - عملية تنسيق التصوير، والوقوف على الجوانب التقنية للأفلام، ضمن "مصلحة الصورة والصوت"، وذلك تطبيقا لتعليمات محمد يزيد، وزير الإعلام في "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية" (بجاوي، 2014، صفحة 61).

2-2/- محمد لخضر حمينه : Mohamed Lakhdar Hamina -

مخرج جزائري، وممثل، وكاتب حوار سينمائي. ولد في 26 فبراير 1934، في مدينة "المسيلة"، بالجزائر. خرج من رحم الثورة الجزائرية؛ ليدخل العملية من بابها الواسع. بدأ مصورا في ميادين التحرير، ثم انتقل، للإحاطة بالصورة كاملة .

تحصل على دبلوم من معهد العلوم الزراعية في الجزائر، لكن قلبه مال إلى السينما، حيث تعلم مبادئها الأولى بالجزائر، بمنطقة "دّلس"، الواقعة في ضواحي العاصمة، قبل أن يقرر الهجرة إلى "فرنسا"؛ ليلتحق بـ "Lycée Carnot" - ليتعلم تقنيات الفن السينمائي .

غير أنّ نداء "التجنيد"، الذي تلقاه من إدارة الاستعمار الفرنسي، ليلتحق بالخدمة العسكرية، أفسد عليهمشاريعه، مما جعله يفرّ، وينخرط في صفوف جبهة التحرير الوطني، سنة 1959 .

بدأت رحلته مع "السينما الجزائرية" عن طريق "خلية الإعلام" التابعة للحكومة الجزائرية المؤقتة للجمهورية الجزائرية، الكائن مقرّها في تونس، مع مجموعة من الروّاد، نذكر من بينهم: المخرج الفرنسي رونييه فوتيه، وجمال شندرلي؛ الأب الروحي للصورة الثورية الجزائرية، وآخرون، من الذين كانوا ينشطون في "الخلية"، في الحدود التونسية الجزائرية، إلى أن قرّرت "جبهة التحرير الوطني" إرساله إلى "براغ" التشيكوسلوفاكية؛ ليتعلم فنون السينما بـ "أكاديمية السينما والتلفزيون".

أنجز محمد لخضر حمينة العديد من الأفلام الوثائقية القصيرة، التي تخدم الثورة الجزائرية، أبرزها، فيلم "ياسمينه"، سنة 1961، الذي أخرجه رفقة جمال شندرلي، بالإضافة إلى إخراج جماعي، مع كل من جمال شندرلي، و بيار شولي، ورونيه فوتيه، لفيلم بعنوان: "جزائرنا"، في نفس السنة. يضاف، إلى ذلك، فيلم وثائقي آخر بعنوان: "بنادق الحرية"، سنة 1961، مع المخرج جمال شندرلي، وفيلم "صوت الشعب"، في السنة ذاتها (بكار، 2018، ص 150-151)

2-3/- أحمد راشدي: Ahmed Rachedi -

ولد بمدينة "تبسة"، بأوراس النمامشة، وانضم إلى حركة التحرير الوطني عند انطلاق شعلتها في سنة 1954، كان عمره - آنذاك - ستة عشرة (16) سنة. في فترة، كان ولوج عالم السينما أمرا ممنوعا على الجزائريين؛ فكل الطلبة الجزائريين كانوا: إما يلتحقون بتخصص حقوق، أو أنهم في الطب، وهذا ما كانت تسمح به الإدارة الاستعمارية الفرنسية، عن دراية، وقناعة أنّ "الصورة - حسب أحمد راشدي - أبلغ من السلاح".

شارك أحمد راشدي في العديد من التحقيقات الوثائقية حول الثورة التحريرية منذ 1958، عندما انضم إلى أول مدرسة للتكوين في المجال السينمائي، تحت إشراف المخرج السينمائي الفرنسي روني فوتيه، إلى أن أرسلته "جبهة التحرير الوطني"؛ ليستفيد من تكوين متخصص في المجال السينمائي في الخارج.

حمل أحمد راشدي السلاح للمشاركة في الثورة التحريرية، بشكل مختلف، إذ كانت "الكاميرا" هي بندقيته، وقد سخر أدواته في التعبير عن قضية بلاده، وثورتها، إلى غاية استرجاع السيادة الوطنية .

كان واثقا - كل الثقة - أنّ الدبابة، والطائرة، والرشاش، وسائل لا بدّ منها في أي معركة، لكنها وسائل غير كافية لضمان ربح المعركة.

فقد ينتصر الجيش الصغير، المجهز بأسلحة متواضعة، على الجيش الذي يتمتع بأحدث أنواع الأسلحة؛ لأنّ المارك لا يحسمها - دائما - السلاح؛ الذي يمسك به الجندي، ولكن تحسمها الإرادة، والعزيمة، التي يتمتع بها. ولم يكن نقص التجربة، وشحّ الوسائل، وظروف الحرب القاسية، عائقا لإنجاز أفلام عن الثورة المضفرة؛ فالإرادة القوية في التحدي والتفوق، كانت المحرك، والمنشط الرئيسي .

لقد ساهمت السينما إلى جانب الأسلحة الأخرى في معركة التحرير، وكلّ الجوانب كانت متناسقة، ومتكاملة فيما بينها، هذا ما ساعد الثورة على تحقيق النصر. فإذا كان الكفاح المسلح بعدها الأول، فإنّ الدبلوماسية بعدها الثاني، والإعلام - باختلاف وسائله - بعدها الثالث .

وعليه فإنّ السينما الجزائرية التي ظهرت أثناء الثورة التحريرية تعتبر إحدى الوسائل التي استخدمتها الثورة في مواجهة دعاية الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الجزائري، وقد تمكنت هذه السينما من السير، في خطوط متوازنة، ومتوازنة مع المجاهدين في الجبال والفدائيين في المدن والسياسيين عبر دول العالم الشقيقة منها والصديقة من أجل تخليص البلاد من المستعمر الفرنسي المتغطرس، الذي طالما ردّد - للعالم بأكمله - بأنّ الجزائر "جزء لا يتجزأ من فرنسا".

وهكذا استعمل قادة الثورة كلّ الوسائل الممكنة، والمتاحة لنفي الادعاءات الفرنسية، بأنّ ما يحدث في الجزائر، ليس عمل "قطاع طرق"، أو "خارجين عن القانون"، وإنّما هو كفاح شعب، سلبت منه حريته، ونُحبت منه خيرات، وهو مصمّم على مواصلة الكفاح المسلح، بقيادة "جبهة وجيش التحرير الوطني"، حتى استرجاع السيادة المغتصبة. وليس أبلغ من الصورة السينمائية لتحقيق ذلك (بكار، 2018، الصفحات 151-152).

في ظل تلك الظروف الصعبة، ولدت "السينما" في الجزائر، ومعها عوامل حيويتها؛ كونها فناً إنسانياً ملتزماً بقضايا المواطن والوطن. وكانت جلّ أعمال السينما الجزائرية الثورية أفلاماً وثائقية قصيرة. وكانت انطلاقتها المباركة، بوسائل بسيطة، وبدعم من مناضلين فرنسيين؛ وأوروبيين، آمنوا بعدالة القضية الجزائرية، فلم يتأخروا في وضع خبرتهم لخدمتها، وأسهموا - فيما بعد - في تكوين تقنيين جزائريين، عملوا - بدورهم - على إنجاز أفلام وثائقية، في ظروف حرب صعبة. لقد كانت الأعمال السينمائية الجزائرية - بحق - شهادة حية، وتسجيلاً موثقاً لأحداث تلك المرحلة، نقلت واقعاً ملموساً، لكفاح شعب، ناضل من أجل استعادة استقلاله وكرامته، مظهرها الوجه الحقيقي للمستعمر، الذي كان - على عكس ادعاءاته - يشنّ حرباً، أقلّ ما يقال عنها، إنّها حرب إبادة، لا تعرف الرحمة .

خاتمة:

استطاعت "الثورة الجزائرية" أن تواجه أعتى قوة استعمارية في العصر الحديث، وأن تقف أمامها - ندًا لندّ - بفضل حسن استعمالها أسلحتها المتاحة والمحدودة وكذلك العمل على تكامل أدوارها: العسكرية، والسياسية، والإعلامية، والدبلوماسية، وعلى الرغم من ضعف إمكاناتها، وحدائث تجربتها، واجهت السينما الجزائرية الدعائية الاستعمارية، وعززت وعي الشعب الجزائري، مرسخة فيه قيم التحرّر، والانعتاق، وتعبئته من أجل تحقيق الأهداف التي سطرها "بيان أول نوفمبر"، سنة 1954. لذا فقد حققت السينما، نجاحا في الداخل، ليس - فقط - في ميدان تعبئة الجماهير، وتوحيد صفوفها حول أهداف الثورة التحريرية الجزائرية، ولكن - أيضا - إبراز الوجه الآخر لفرنسا الاستعمارية. ونجحت أيضا في كسب المعركة، على المستوى الخارجي - أيضا -، بحيث أصبح "صوت الثورة الجزائرية" مسموعا عبر العالم؛ ينتزع يوميا تأييد الرأي العام العالمي، وتعاطفه مع كفاحه العادل، وقضيته المشروعة.

إنّ هذه الإنجازات، قد تحققت بفضل "شباب" ثوار جندوا أنفسهم لخدمة قضية آمنوا بها، وقد كان الواجب الوطني يناديهم، بحيث لم يتردّدوا في تلبيته. لقد شعر هؤلاء الشباب بأن الحياة بلا حرية، ليست أفضل من الموت؛ فانطلقوا في كفاحهم، عازمين الأمر ألا يتوقفوا عن مواجهة العدو نشاطه إلا بانتصار العزة والكرامة. بالإضافة إلى المقاييس، التي تتوفر في كلّ مجاهد يقبل على التضحية - في صمت -، ودون تردّد، في ساحة الوغى، إلى جانب أجنب لبوا نداء الواجب الأخلاقي والضمير الإنساني لمناصرة المطالب الجزائرية في استرجاع حريتهم المغتصبة.

لقد كانت الثورة التحريرية المجال الذي منح للسينما فرصة للظهور والتبلور، واستطاع مجاهدون متحمسون؛ حملوا إلى جانب البندقية كاميراتهم، لتوصيل صورة الثورة للعالم.

حقّق هذا الشباب المجاهد "المعجزات"، من خلال نشاطه السينمائي بمساندة أصدقاء القضية الجزائرية، أعمالا تتطلب كفاءات عالية، مبرهنا على قدرته في وصف الأحداث، وتحديدها، وفضح الأعمال الوحشية الجهنمية التي كان يقوم بها الاستعمار الفرنسي، في أثناء الثورة التحريرية الجزائرية، وإيصال هذا الواقع الحي إلى الرأي العام الفرنسي، والأوروبي، وإقناع شعوب العالم بعدالة القضية الجزائرية.

المصادر والمراجع:

أولا: المراجع باللغة العربية

1. بجاوي أحمد سينما وحرب التحرير: الجزائر معارك الصّور، ترجمة: مسعود جناح (الشهاب، الجزائر، 2014).
2. عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية في الجزائر. (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985).
3. وزناحي مراد، الثورة التحريرية في السينما الجزائرية 1957 - 2012: دراسة تحليلية للأفلام السينما الجزائرية. (دار الأمة، الجزائر، 2014).
4. هلال عبد الرزاق. تاريخ السينما: صورة الجزائري على الشاشات الفرنسية. ترجمة: موسى أشور ، (منشورات رافار، 2013).

الرسائل الجامعية:

5. بكار فايزة، كيفية تصدي وسائل الإعلام السمعية البصرية، أثناء الثورة التحريرية الجزائرية، للدعاية الفرنسية (الفترة من: 1956-1962)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في علوم الإعلام والاتصال جامعة الجزائر، 2018.

المقالات:

6. الكسان جان ، السينما في الوطن العربي، (مجلة المعرفة. مارس، 1982)
7. خياري جمال الدين، السينما في خدمة الثورة 56-76، (مجلة أول نوفمبر اللسان المركزي للمنظمة الوطنية للمجاهدين أفريل، 1976)
8. الشعب. الكاميرا تعيش مع الثوار الجزائريين. (02 نوفمبر 1997، العدد 11454).
9. المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية. وثورة الفاتح نوفمبر السينما والثورة الجزائرية، الذكرى الأربعون للتأسيس. (المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة فاتح نوفمبر 1954، 1997).
10. وزارة الإعلام والثقافة. الإنتاج السينمائي الجزائري 1957 - 1974. (الجزائر، بلا تاريخ).

ثانيا: المراجع باللغة الفرنسية

1. Bedjaoui, A. (1992). Silences et balbutiements, images d'une guerre. (c.c.i, Éd.) France.
2. Boudjedra, R. (1971). Naissance du cinéma algérien. (Maspero, Éd.) paris.
3. dadci, Y. (1970). Première histoire du cinéma Algérien. (SNED, Éd.) Alger.
4. elkenz, N. (2003). l'odyssée des cinémathèques algériennes à la recherche d'une mémoire perdue.(ANEP). alger,algerie.
5. les cahiers du cinema. (1992, juin). images d'une guerre. N01 juin1992, France Algerie.